

(الهرطقة)

ورقة الضغط أم إفلاس الإكليروس الديني؟؟

د. وسام العبيدي

يَرَدُّ مصطلحُ (الهرطقة) في أدبيات الدين المسيحي، ومعناه باختصار " البدعةُ الدينيةُ " أو كما يعرفها الكاثوليك " رأي ديني مدانٌ كنسيًا على أنه مناقض للإيمان الكاثوليكي " أو " خطأ إرادي ومُتَشَبِّهٌ به، متعارض مع مبدأ إيماني موحى به، وتعلمه الكنيسة بصفته هذه " .

ولو تتبعنا مناشئ التنوع في الهرطقة عند أتباع الدين المسيحي، لوجدناها بصورة عامة. تنطلق من سببين رئيسيين هما :

الأول : الفهم الخاطئ الذي يخص جماعة من المسيحيين دون أخرى، في ظروف زمانية ومكانية مختلفة، وبذلك يتبين الاختلاف في الطقوس الإيمانية التي تقيمها جماعة دون أخرى، وهذه البدعة الدينية مطبوعة بواقع أن أتباعها يلتحقون برأي تعدّه السلطة الكهنوتية رأياً خاطئاً، أو غالبية أعضاء الكنيسة، فالأمر ليس رأياً وحسب، بل هو انحراف، وهذا الانحراف يتناول إما العقائد، أو الطقوس، فلكي تكون هناك هرطقة، يجب أن تكون هناك مبادئ إيمانية أساسية وحقائق موحى بها، ومن ثم تأخذ طريقها عند كل جماعة من التأويل بما يتناسب وأذواقهم، ومصالحهم الشخصية، فالهرطوقي لا يصبح منتسباً إلى بدعة دينية إلا حين يستمر في خطئه، وينفصل بشكل مكشوف عن الكنيسة مع عدد من الأشخاص الذين يفكرون مثله على صعيد الإيمان، فالمرء لا يمكنه أن يشكل بدعة لوحده، ولكن يمكن لشخص أن يؤمن بهرطقة من دون أن يكون عضواً في جماعة هرطوقية، أو زعيماً لها، وتلك كانت حال (إتيان دوليه) الذي جرى حرقه ؛ لأنه أنكر خلود الروح، وتلك أيضاً كانت حال (غاليليه) الذي تعرض للإدانة على يد محاكم التفتيش ؛ لأنه أنكر حركة الشمس، وتلك كانت حال (جان دارك) التي أدانتها

محكمة (روان) الكنسية لأسباب سياسية في الحقيقة أكثر مما هي دينية، معلنة أنها "إنشاقية ومرتدة" ثم "هرطوقية وساقطة ثانية في الهرطقة" بعد أن عدلت عن ارتدادها.

ومن بين آباء الكنيسة، كان أسقف أنطاكية (إغناطيوس الأول) أول من اتهم بالهرطقة في نهاية القرن الأول، بانتهاك وحدة الكنيسة، ففي رسائله يهين (الافسسيين) على عدم تقبل عقائد باطلة، ويوصي (التراليين) بالابتعاد عن (الدوسيتيه) "تلك النبتة الغريبة التي تشكل هرطقة"، وفي القرن الثاني كتب (يوسيتيانوس) بحثا عن الهرطقات، يصف فيه من يستسلمون لها بـ "فاقدي الإيمان" و "الزنادقة" و "المجدفين"، وفي الفترة عينها كتب أسقف ليون (إيرنيوس)، ومن هذا حذوه في القرن الثالث (أوريغان) و(ترتليانوس) هؤلاء الأبحار المشهورون الثلاثة، يكتفون بإعلان إن الهرطقة الذين ينسبون أنفسهم إلى المسيح سيئون إلى تعليم الكنيسة المؤلف.

وفيما يتعلق بالهرطقة ينص القانون الكنسي الحالي على إن المسيحي "إذا أنكر بإصرار إحدى الحقائق التي يجب اعتبار إنها تتعلق بالإيمان الإلهي والكاثوليكي، أو شكَّ بها، يكون هرطوقيا" وتعلق مادة أخرى من الكوربوس "إن القضية الهرطوقية هي تلك التي تدخل في تناقض مباشر وفوري، على شكل تعارض أو تضاد مع نقطة من العقيدة التي أوحى بها الله واقترحتها الكنيسة

السبب الثاني: الخلفية الاجتماعية لهذه الانشاقات التي كثيرا ما عبرت عن رؤية الطبقات المقهورة، وتطلعاتها إلى التحرر والعدالة والمساواة على الأرض بالذات، في مواجهة المؤسسة الدينية الأم التي غالبا ما كانت في واقع الطبقات السائدة، ومشاركة في المظالم التي تمارسها هذه الأخيرة على الفئات الاجتماعية الموعلة في البؤس. لهذا السبب و بضميمة السبب الأول كان جانب أساسي من رفض مطلقي الهرطقات والبدع ناجما عن شعورهم بالبون الشاسع بين المسيحية الأولى كما تظهر في الإنجيل، وفي حياة مجتمع المؤمنين الأوائل من جهة، وتوجهات الكنيسة

الرومانية من جهة أخرى، ونمط حياة رجالها الكبار، من رأسها الأعلى البابا مرورا بالكرادلة ورؤساء الأساقفة وصولا إلى الأساقفة من الممثلين المفترضين لمملكة المسيح، ومن هنا نشأت النظرة الغضبي من لدن المسيحيين الآخرين على هؤلاء المدّعين، ف (الكاتاريون) ينظرون إلى روما على إنها " كاتدرائية الشيطان " فيما يصف (الفوديون) الكنيسة الرومانية بـ " عاهرة بابل " والبابوات والأساقفة بالقتلة، والرهبان بالفريسيين، ورأى (ويكلف) الذي كان أول من ترجم الإنجيل إلى الإنجليزية أن البابا هو المسيح الدجال و" قائد جيش الجحيم "، أما لوثر الذي يشعر بأنه مدعو لإطاحة " المسيح الدجال " في روما فكان يعتبر أن " الرهبان خنازير، والكهنة حمير، والكنيسة بيت دعارة " وقد بلغ النفور من المؤسسة الدينية وما تحيط به نفسها من ألغاز ومفاهيم غامضة بلغ حدودا جعلت العديد من أصحاب البدع يدعون على غرار (هنري دو لوزان) تليذ (بيار دوبروي) الفرنسي إلى " دين من دون كهنة أو كنائس أو أسرار " وكذلك كان أصحاب هذه البدع غالبا ما يعتنقون نظريات اجتماعية كانت تتعارض مع نظام الملكية، وكانت الدولة البابوية تضيف مسوغاً يدعم الصراع الذي بادرت لخوضه الكنيسة ضد عقائد بدت ضارة بالنسبة إليها بصورة مزدوجة، أي في رفضها للرواية السائدة بخصوص الإيمان ومعارضتها في آن للهيمنة الاجتماعية القائمة، وإلى هذا المعنى أشار مؤرخ الكنيسة (دولينجر) " لقد كان لكل العقائد الهرطوقية التي ظهرت في القرون الوسطى، بصراحة وبصورة ضمنية طابع ثوري " فصاحب البدعة الفودية (بيارفالدو) كان قد وزع أملاكه على الفقراء، وكان يقرأ، في مواعظه، كتب الأنبياء والرسل بالعامية، لغة الناس البسطاء والمُعْدَمين، ودعا إلى رفض هؤلاء دفع العشور، وإلى اعتبار جميع الناس متساوين، وكذلك شأن (توماس مونزر) الذي اعتبر أن العقل مصدر أساسي للوحي إلى جانب الكتب المقدسة، وأن المسيح نبي وحسب، وعلى المستوى الاجتماعي راح يعظ بإلغاء الطبقات والملكية الخاصة، وقاد حرب الفلاحين التي فجّرها في خريف 1525م، والتي رفع من خلالها مطلب إلغاء القنانة

والحقوق الإقطاعية، لهذا السبب أعطاه (فردريك انجلس) [وهو ثالث ثلاثة في الفكر الماركسي] أعطاه " شهادة شيوعي حقيقي " ولكن هذه الانشقاقات التي كانت تحمل بذور إصلاحية أو تحاول إلغاء الفوارق الطبقة بين المسيحيين لم تكن تنسحب على جميع الثورات في تاريخ الكنيسة، فأحد هذه الانشقاقات وهو بين أبرزها، وبالتحديد ذلك الذي أطلقه (مارتن لوتر) وأدى إلى ظهور (البروتستانتية)، لم يكن يتسم بالطابع الثوري، بل على العكس؛ فقد وقف لوتر موقفا سلبيا جدا من الثورة الاجتماعية، وهو القائل " يجب وقف الفلاحين، وقتلهم بالسيف، سرا وجهارا، فليس ثمة من هو أشبه بالشیطان من متمرّد، إنه كلب مسعور، إذا لم تقتله قتلك ومعك بلدٌ بكامله"، وقد نفذ الأمراء والإقطاعيون تعاليمه هذه بحذافيرها، حتى أنّ أحد هؤلاء اعترف في حديثه عن طريقة خوضه هو وجماعته الملاكين للحرب الاجتماعية التي قادها (توماس مونزر) ضدّهم، وذلك بكلمة مختصرة معبرة جدا، حيث قال " لعبنا بروؤس الفلاحين بالطابة " نستنتج من هذه الأمثلة السابقة أنّ الدين الذي ادعته هذه التيارات كان غطاءً حاولت باسمه أن تستبدّ بالآخرين، وتشرعن ظلمها باسم الدين، فلذا كان من الطبيعي في مثل هذه الأجواء الخائفة أن تنطلق مقولة ماركس "الدين أفيون الشعوب" أو كما وردت بالنص الحرفي الذي قاله ماركس، والذي حاولت أكثر من جهة عن عمد أو غير عمد تضخيم المقولة، وأن تلوي عنقها في غير ما كانت عليه، لو قرأت دون حذف أو بتر لها عن المحيط الثقافي، والاجتماعي، والديني؛ إذ يقول. ماركس. في كتابه (مقدمة لنقد فلسفة الحق أو القانون عند هيجل) " إن العذاب الديني هو تعبير عن العذاب الفعلي، وهو في الوقت ذاته إحتجاج على هذا العذاب الفعلي، فالدين هو زفرة المخلوق المضطهد، وهو بمثابة القلب في عالم بلا قلب، والروح في أوضاع خلت من الروح، إنه أفيون الشعب " فهو يقرر أنّ الدين أضحى عزاء نفسيا لإنسان مطحون معرض للظلم الاجتماعي، فهو الدين. بمثابة الإفيون الذي يجعل ذلك الإنسان يحلم بالغد وبالأماني المتحققة في الأحلام، وقد ذكرنا أمثلة عن الدين. إن

صحَّ تسميته ديناء الذي صدرت منه مقولة ماركس، والتي تعكس خلفية تاريخية
لسلطة الكنيسة في أوروبا ملئت بالإضطهاد والقمع لرجال الفكر أمثال (ديكارت،
بيكون، سبينوزا، هوبز، برونو) عدا من ذكرناهم قبل قليل، والتي تدلُّ على مدى
إفلاسها من الفكر وفراغها من الإيمان الذي ما فتئ أن يكون ادِّعاءً على كل لسان.

